

النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في "حكاية العربي الأخير"
The representations of new colonialism
In the novel of *The Last Arab*

أ.د. عبد القادر فيدوح¹
جامعة قطر

ملخص البحث

تدور فكرة رواية [2084 حكاية العربي الأخير] حول مآل العرب الذي كان سببه الانحدار إلى الانحلال في ظل الأزمات والصراعات الدولية، بخاصة تلك التي تجري بين القوى العظمى والأنظمة العربية الشمولية، أي بين إرادة السلطة ورغبة الاستسلام، والطاعة، وقد مثل الطرف الثاني الشخصية الرئيسة في الرواية [آدم] التي أريد لها أن تكون عالما فيزيائيا نوويا، ومشرفا على مشروع "صنع قنبلة نووية مصغرة"، يسهل وضعها في الزمان والمكان المحددين، وهي فكرة مستوحاة من الخيال، تحاكي مجريات أحداث العالم العربي اليوم. وقد اختار الكاتب قلعة [آرابيا]، في إشارة إلى الدول العربية، في حين اختار مسمى [أميروبا] وهي كلمة مركبة من أميركا وأوروبا.

لقد كان للحروب العنيفة بين العرب والغرب، أو فيما بين العرب أنفسهم، الأثر البالغ في تفتيت العرب وتشتيتهم إلى شظايا. ولم يعد لهم أي

¹ - اسم ولقب الباحث: د.فيدوح عبد القادر، جامعة قطر، قطر، البريد الإلكتروني:

Abdelkader.f@qu.edu.qa

أ.د. فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

دور في بناء حضارة الألفية الثالثة، بفعل التمزقات الطائفية والعرقية، حتى بات أفضل العربي يوصم بـ: "العربي الجديد هو العربي الميت". وتطرح الرواية أسئلة أنطولوجية في ظل الأزمات الوجودية، بعد صناعة الإرهاب، وتحديد العدو؛ لتحقيق الهدف على الطريقة الميكافيلية Niccolò Machiavelli بوصفها نظرية تعكس "الغاية تبرر الوسيلة"؛ أي استخدام العنف من أجل إثبات القوة للسيطرة على الشعوب، وهو ما تتبناه دول [أميروبا] بحسب تعبير الرواية في استراتيجياتها السياسية، التي لم تجد غير شخصية [آدم] المُدرَّب على إنجاز فعل الموت بسباق محموم، ويقوم بالحرب في [أرابيا] بالوكالة في صورة خيالية لها من القرائن الدالة ما تعكس الواقع. الكلمات المفتاحية:

العربي، الأخير، الواقع، السرد، آدم، ليتل بروز، أرابيا، أميروبا

Abstract

The novel [2084 The Last Arab] revolves around the fate of the Arabs, which was caused by the decline to decay in light of international crises and conflicts, especially those that are taking place between the great powers and the totalitarian Arab regimes, i.e. between the will of the authority and the desire to surrender and obedience. In the novel, Adam, created by the West, was a nuclear physicist, overseeing the project of "making a mini-nuclear bomb", easy to place in a specific time and place. This is an idea inspired by

imagination, simulating the events of the Arab world today. The writer chose to name the castle [Arabia], in reference to the Arab countries, while he chose the name [Ameropa], a word compound from America and Europe.

The Arab-Western futile wars, or among the Arabs themselves, have had a profound effect on the fragmentation of Arabs, which have no role in building the civilization of the third millennium due to sectarian and ethnic ruptures. Even the best Arab was described as "the good Arab is the dead Arab."

The novel raises Ontology questions in the context of existential crises, after creating terrorism, and the identification of the enemy; to achieve the goal on the Machiavelli method; whose theory of "the end justifies the means", meaning the use of violence to prove the power to control people. This is adopted by *Ameropa* countries in their political strategies, according to the novel, who found in [Adam] the right person to accomplish the act of death in a frantic race, and the war in *Arabia* acting in a fictional form of evidence that reflects the reality.

Keyword

Arab, last, reality, narrative, Adam, Little Broz, Arabia, Ameropa

سؤال الأنطولوجية/ فعل الكون

تشكل أحداث رواية [حكاية العربي الأخير] بؤرة جديدة في منظور السرديات السياسية، وتجسد معنى الانفتاح على الرؤية الفكرية لما بعد الحداثة، بوصفها انفتاحاً على عوالم ممكنة، ملتبسة، تسعى إلى تقويض مسار السرديات الكبرى، وتحولها إلى مساءلة خلافية، تستمد طروحاتها من اضطرابات الوجود الأخط، والأردأ، في تأدية الواقع إلى التيه، وهو ما خلق وعياً جديداً غير قابل للفهم، على نحو ما عبرت عنه جميع أصوات شخصيات [حكاية العربي الأخير] التي استطاعت أن توحد مواقفها الفكرية نحو التضليل، على الرغم من اختلاف هوية الشخصية الرئيسة [آدم] مع باقي أصوات الشخصيات الأخرى المتحركة في دوايب السرد بمجرياتة السياسية؛ بدافع التأثير في أنظمة الوعي الحضاري الذي بات مرهونا بالعسف والاستبداد؛ لفرض وجهة النظر الواحدة من قبل الراوي المطلق العليم بما ينبغي أن يكون عليه الواقع المبهم في ظل النظام العالمي الجديد، ومن زاوية نظر هدم الآخر، وتخريب مقوماته، وتسفيه مبادئه، وتغيير طبيعة العلاقات الإنسانية في اتجاه سياق [التابع].

وفي هذه الحال، كان على الرواية الجديدة ذات الطابع السياسي أن تطور موضوعاتها، وتخلق أشكالاً جديدة، قادرة على التعامل مع تلك التغيرات بما يجعلها منعكسة في الأعمال الروائية الفنية، وربما حتى بما يجعلها أكثر فريدة وتأثيراً، وفي أحسن الأحوال وجدت الرواية السياسية إمكانات عدة لبلوغ الشكل الروائي الذي يمكن من خلاله للغة والهياكل الروائية

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

انتزاع الحقيقة والجمال من برائن فوضى العالم الحديث... وقد ساهمت الرواية الحديثة في صناعة وسيلة يمكن من خلالها طرح الأسئلة المناسبة، ونعني بذلك: مساءلة التغيرات التي جاءت بها الحداثة¹، في أفكار الكونولونية الجديدة التي تحاول أن تدحض بناء الموروث الثقافي، وإدخال الواقع في استشكال حضاري، ومن خلال ذلك فإنه يجب "لزوم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لا بدّ من ربطها بمظاهر الحياة السياسية والثقافية"².

وإذا كانت الكونولونية تستعرض قواها العسكرية والحضارية لاستغلال الهوية الوطنية المستعمرة، فإن ما بعد الكونولونية وظفت طاقتها الثقافية والحضارية لممارسة التفكيك، والهدم، وتقويض الثقافة المحلية بكل ما تملكه من آليات مادية، ومعنوية، وثقافية، وسياسية؛ بدافع إلحاق الذات الوطنية بالآخر [العربي]، وجعله تابعا بمفهوم (سبيفاك GayatriSpivak) في سؤالها الاستنكاري: [هل يستطيع التابع أن يتكلم؟]. إذا كان الأمر كذلك مع الكونولونية، فإن الكونولونية الجديدة تجاوزت مرحلتها الاستغلال والتبعية إلى تأسيس منهجية الهدم، والدمار، والهل، والفرع، والإبادة، والإماتة، والاجتثاث، والفتك، وكل ما يحوزه

¹ ينظر، جيسي مازن، تطور الرواية الحديثة، ترجمة، لطيفة الدليمي، دار المدى، 2106، ص159.

² إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000م، ص8، 9.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

البطش، والخراب، والتهجير القسري، كما استبدلت الكولونيالية الجديدة مركّب العظمة الغربية بالاعتزاز بالهوية المحلية، وجعلت الذات الوطنية تقاتل نفسها بنفسها، وتأكل بعضها لَصُورِها الشديد بسفك الدماء، وتمزق مصيرها بإرادتها الهوجاء، سواء عبر التطهير العرقي، أم عبر النعرات الدينية، أم عبر الخلافات الهامشية، وجعلها متناحرة فيما بينها، وبذلك تحولت المواجهة في مفهوم الكولونيالية الجديدة من اختلاف الأنا مع الآخر إلى مصارعة الذات مع ذاتها، وتفتيتها، بكل ما توصلت إليه الهمجية من أساليب وحشية، ومُحجج واهية، على نحو ما جاء في حوار بين المارشال وملازمي: " اليوم في أرابيا.. يتقاتلون... يسحبون السيوف والسكاكين على بعضهم البعض... ويمحون آثارهم منتصرين كانوا أو منهزمين"¹، ولنا في ذلك من الأحداث والمشاهد الدموية التي وصفتها الرواية، وما زالت منتشرة في أوطاننا، ما تقشعر له الفرائص، وتصطبك منه الأبدان من هول ما يقع، بعد أن جُرد الإنسان من إنسانيته، وأعيد إلى بهيميته.

يبدو أن منطق الحقيقة صار يتجه مع الكولونيالية الجديدة نحو الانحياز بتلوين النهج المعياري الذي مارس وظيفته منذ أمد بعيد؛ إذ لا جدوى من معنى حقيقي في نظر الكولونيالية الجديدة؛ بإدخال العالم في حقل التجارب، وتغييب اليقين من عقل الإنسان. ومع تداخل المفاهيم، وتضارب المصالح لم يعد للوعي الجديد إمكانية قابلية السرديات الكبرى التي سادت عصوراً، كما لم يعد لثقافة المركز أي دور فاعل، بعد أن أسهمت في

¹ واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر 2015 ص 15.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

إزاحة الوعي الإنساني عن القيم، وحلّ الذات وتفكيكها، ومن ثم أصبح المسعى الأساس هو الكشف عن الشذوذ الذي تمارسه الذات في تدمير ذاتها بذاتها. وعلى هذا الأساس فإن إعادة رسم النهج المعياري للهويات أصبح يتلون في اتجاه التشتت الأخرق الذي أشار إليه صامويل هنتنغتون Samuel Huntington في كتابه [صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد] الذي بدأ يأخذ شكلين: "على المستوى المحلي أو الصغير، تحدث صراعات خطوط التقسيم بين دول الجوار المنتمية إلى حضارات مختلفة، وبين جماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة داخل دولة ما، وبين جماعات تحاول إقامة دول جديدة على أنقاض الدول القديمة، كما حدث في الاتحاد السوفياتي السابق، ويوغسلافيا السابقة. صراعات خطوط التقسيم متفشية، خاصة بين المسلمين"¹

يتخذ الكاتب في حكاية العربي الأخير أسلوب التحذير في اللامقول في النص؛ لتنبيه المتلقي إلى ما يحاك حوله من دسائس، وأسلوب المغامرة في اللاحدود، وأسلوب اللا جدوى من الوصول إلى معنى حقيقي، وهو أسلوب يدعو إلى الحيرة فيما يقع من مجريات أحداث عصية على الفهم، باتت تدفع الإنسان إلى طرح السؤال عن العلل التي أصبحت تتحكم في الوجود بمعزل عن التفسير العقلي، نظير ما تفرضه الأحداث من هستيريا الدمار وتفتيت الواقع بالحروب العنيفة، وتشتيته إلى إثنيات، " في أرابيا،

¹ صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، ط2، ص336.

أيضا، حروب طاحنة مزقتها وقتلتها، بدأت بتمزق محدود، إثني، أو قبلي، أو عرقي، أو لغوي، قبل أن يتحول إلى حرب عرقية بلا نهاية. داخل هيكل أرابيا، هناك أرابيات، شيعة وسنية، دروز وأرمن، وأكراد وأمازيغ، لم يعترف لهم بأي حق، الباقي يقفون على أرض هشة"¹

ومهما حاول المرء أن يستوضح تعلات واقع الحال، يجد نفسه متجاوزاً، إدراكاً، وتخيلاً، نظير ما يجري من أحداث تخطت الواقع إلى ما فوق الواقع، وتجاوزته إلى كون آخر ملغز، خلق نوعاً من "الوعي المشبوط بالوضع" على حد تعبير فريدريك جيمسون Fredric Jameson؛ إذ كل وعي يخلق في ذاته صراعات حادة من المفاهيم، تشكل في ذاتها أكوانا خيالية، غير قارة على حال، وبشكل متناقض. وإذا كانت القاعدة الأنطولوجية ontology تحاول أن ترسي نظرياتها على تأكيد الوعي الذي ينظم الواقع، فإن الكولونيلية الجديدة تنظر إلى الواقع بما فوق الواقع، بحسب تعبير جان بودريار Jean Baudrillard الذي انتقد الغرب في معظم كتاباته، بخاصة في كتابه قوة الجحيم (Power Inferno) (2002) وروح الإرهاب The Spirit of Terrorism كما جاء في قوله: "لا يتعلق الأمر بصراع الحضارات، بل بمواجهة أنثربولوجية بين ثقافة عالمية متمائلة، وكل ما يحتفظ في أيّ مجال بشيء من التمايز يحول دون تذويبه في تلك الثقافة. ووفقاً لتلك الثقافة العالمية تغدو كل الأشكال

¹ واسيني الأعرج، حكاية العربي الأخير، ص 148.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

المختلفة للخصوصية بمثابة هرطقات، تمامًا كما هو الحال في الأصولية الدينية. إن رسالة الغرب تتمثل في إخضاع الثقافات المتعددة لقانون المعادلة القهري بكافة الوسائل الممكنة. إن مثل هذا النظام يرى في كل شكل عصي عليه إرهابًا مفترضًا... فالعالم الحر لا يتحمل... أن يقف بلد ما في مواجهته، مهما كانت خلفيته الدينية التي يستند إليها، فمن غير المسموح الاعتراض على الحادثة في نزعتها الكونية"¹

ترسم شخصيات الآخر في "حكاية العربي الأخير" رؤية خاصة لإعادة تكوين العالم من خلال هدم المرجعية المعيارية، وهي بذلك تحمل في تضاعيف مضامين أفكارها مقومات الفتنة والضلال، وما فتئت هذه المقومات تنتج صناعة العنف بأشكاله، الظاهر منها والباطن، وقد أسهمت فيها صورة الضمير العربي الواهي — بشكل مباشر — عن طريق شخصيات وكيلة سيكوباتية، رهنّت نفسها للآخر، واستبدلت صناعة الموت، بنضارة الحياة، ونعيمها، على نحو ما ترسمه صورة الوعي الذاتي في شخصية [آدم]، التي أظهرها الكاتب بصفات متعفرة في وحل خطيئة الآخر؛ بتمزيق شرفها، وتدمير كيائها الحضاري، وبشكل علني، وهو ما تجسده الكثير من مؤسسات

¹Jean Baudrillard, J. The Spirit of Terrorism and Requiem for the Twin Towers. Trans. C. Turner (London, Verso. 2002) p 91.

وينظر أيضا، بدر الدين مصطفى أحمد، عن الإرهاب والحرب العالمية الرابعة، قراءة في كتاب <http://www.mominoun.com> روح الإرهاب لجان بودريار، الرابط،

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

هذا الضمير، المزدرية بمكوناتها، ومبادئها، وبذلك أصبح تشظي الوعي أحد مبررات تفتيت الكينونة، إزاء التزعة العدمية، واضطراب الوجود، أمام خلفية التباس الكون المذهل، وعلى هذا النحو أسهمت شخصية [آدم] في رسم صورة مقبلة في سرد الرواية، وسط أحداث مليئة بصخب العنف والانكسار القيمي والحضاري والنفسي، وهو ما جعل الآخر يصفه بأشد علامات الوسم، وبكل الصفات الوضيعة، الذي عبرت عنه إحدى شخصيات النموذج الغربي في الرواية بقولها: "أنا المكلف بإطعام هؤلاء الآرايين القادمين من بعيد، مساكين حقيقة، تأكلهم الصحاري والبرد والمجاعات، انظري، عظامهم تكاد تنكسر وتخرج من تحت الجلد من شدة الجوع والتعب والخوف، تكاد خرقهم التي تمرقت على جلودهم أن تنتفي نهائيا، وتكشف عن بقايا أجسادهم المتهالكة، يتقاتلون على لا شيء، لكني مستغرب كيف لا يأكلون لحم بعضهم البعض ويفضلون الموت والتحول إلى غبار للمقابر".¹

وفي هذا التوصيف من شخصية [الكولونيل صامويل] صورة لا يمكن أن يعقلها امرؤ، بوصفها تشويها علنياً جائراً في حق كينونة الإنسان العربي الحديثة، على الأقل من ناحية ثقافة احتواء تراكيب الأشياء في مقوماتها المادية، ناهيك عن الكثير من القيم والمبادئ الإنسانية؛ ولعل الأبرز في تمثيلات سرد الرواية هو ما جعل الآخر المتعطر صانعا محترفا للفرضية

¹ حكاية العربي الأخير، ص 69 ، 70.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

الإرهابية بخطة ممنهجة لفعل الدمار، في صورة العدو المتصور كما يطلقه عليه [بيار كونيسا Pierre Conesa بطرحه هذا التساؤل: " لماذا العدو؟ ما الدور الاجتماعي والسياسي الذي يؤديه في المجتمعات المعاصرة؟ هل يجب على الهوية أن تبنى بالضرورة ضد "الآخر"؟ يعتبر كارل شميت أن هذه هي وظيفة السياسي بذاتها، فالعدو إذاً هو الآخر، الشر، التهديد، ولا يمكن فصله عن الحياة، كالمرض،... وهو يقدم خدمات كثيرة، ويعمل مهدئاً، خصوصاً عبر المسؤولية التي يمثلها (الحقيقة أو المتخيلة) في قلنا الجماعي، ويمكن لصناعة العدو أن ترسخ الأواصر الجمعية، ويمكن أن تكون مخرجاً بالنسبة إلى سلطة تواجه مصاعب على الصعيد الداخلي".¹ وفي هذا ما يشير إلى أن العدو صُنِعَ في ثقافة قبيلة أرايبا بالوكالة، ودرب على إنجاز فعل الموت بسباق محموم، وهو ما يطلق عليه بالعدو الحميم، أو العدو الضمير الواهي، رغبة في التقرب إلى دار الخلد، ظاهرياً، وللتغريب في ذات الآخر باطنياً؛ إذ "كل شيء يراهن على الموت، ليس فقط من خلال هجمة الموت مباشرة — في الزمن الواقعي على الشاشات — التي تقضي بضربة واحدة على سيمولاكرات Simulacres العنف والموت التي تتدفق إلينا يومياً

¹ بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة نبيل عجان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط2015، 1، ص 16.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

بجرعات تجانسية، إنما عبر غزوة موت أكثر واقعية، رمزية وقربانية، أي الحدث المطلق والعشي¹ لاستقواء الآخر.

وفي نظام الكلونيالية الجديدة كما في نظام فكر ما بعد الحداثة يكون البقاء للأقوى، وبضرورة إلزام الآخر بالتبعية، وهنا، تغدو المهمة محكمة التدبر من القوة الناعمة، وبفعل الطرق المبتكرة لسبل المحو، والإقصاء، من أجل إعادة خلق تراتبية جديدة لنظام الكون، ومن منظور إن قوة الإنسان الحديث تكمن في خلق ذاكرة جديدة بوعي جديد تفرضه إرادة القوة بحسب تعبير نيتشه؛ إذ "أرفع القيم تقوم بتدمير نفسها"، وفي حال تعذر ذلك تتسلل القوة الناعمة المضيفة من دون استئذان؛ لتقوم بما يلزم من تشظٍّ ممنهج، وفصم الذات عن بعض ذواتها، وتقزيم ذاكرتها، واستحالة خلق وعي متجانس في ظل الوقع الحالك، والمستقبل القائم.

إن فعل الانهيار بالدلالات القائمة هو ما يسلكه السرد مع جميع الشخصيات في حكاية العربي الأخير التي تعد وثيقة دالة على النسق المهيمن من فعل الخراب الذي تمارسه الذات بعملها الإجرامي الشنيع في حق الهوية والمصير.

وقد يكتشف المتلقي في الرواية أن العنف الملبس بالمقاس؛ للثقافة العربية الإسلامية في شخصية [آدم]، تجاوز حدود الإرهاب الفردي في

¹ جان بودريار، وإدغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2005، ص 64.

أد.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

مسميات دالة لشخصيات بعينها إلى إصاق التهمة بالإرهاب في صيغته الثقافية بالمؤسسات، وفي بعض الدول؛ لكي تكون ثقافة العنف، هذه، شاهداً على تكريس الفعل الوحشي، وشامة ثقافية متوالية في جبين ذويها، ورغبة في تأصيل الظاهرة في وعي المجتمعات القادمة، وتأثيرها السلبي على حياة الحضارات القادمة، وهو ما رسمه السرد الفجائي في شخصية [آدم] الذي وقع فريسة في مخالب النسور، في إشارة إلى حضارة الكولونيلية الجديدة؛ إذ " بدا كأنه ميت، أو يموت. لا قوة فيه، اقتربت منه ذئاب براري الشمال، كانت تظهر أنيابها الحادة من شدة الجوع، كأنها كلها اتفقت عليه، أحاطت به وهي تستعد للهجمة القوية التي تشل حركته، وتحوله إلى طعم سائع"¹

• إدارة التوحش/ من يدبر؟ ومن يدير؟

استطاعت الكولونيلية الجديدة بكل ما تملك من ثقل منهجي أن تستولي على مجال الوعي الثقافي والسياسي — على وجه التحديد — وإذا كان ذلك هو ما تؤكده هوية البراديجم الجديد، فمن باب المقام الأول الحرص على تعزيز مكانتها بتصدير ثقافة القوة الذكية الناعمة، وتعميمها على الهويات المحلية لاحتوائها، ثم محاولة تفكيكها، واستبدال البراديجم الناعم بالهوية التليدة، والممزقة؛ اعتقاداً منها أنها لم تعد تقدم البدائل الحضارية للجيل الجديد، الواعد، الذي صار ينظر إليها بوصفها تمثل العجز المحض

¹ حكاية العربي الأخير، ص 457.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

لمسيرة حضارية جديدة، ومن ثمَّ استحالَت إلى استيعاب كلِّ الرؤى الثقافية المتنوعة.

ولعلَّ السبيل الوحيد في نظر الكولونالية الجديدة هو تحصين القوة الذكية الناعمة، وتسديد الرادع الأمني الذي لا يقبل أية تسوية مع أيِّ كان، وحيثما كان. وللوصول إلى هذا المرام ينبغي تفكيك مكونات الهوية الوطنية بالتحليل الثقافي، ومخاتلة الرأي بالمداهنة، وليس بالسلاح، وبمنظومة إعلامية تمتلك احترافية، عالية الجودة، في التضييل بتوظيف تكنولوجيا المعلوماتية، واستعمال لعبة خداع البصر، كما جاء في قول المارشال ليتل بروز في نقل بعض الصور المزيفة لأحداث مفتعلة: "ههههه هل هي الغباوة الكبيرة، أم الذكاء المطلق للتكنولوجيا. على أيِّ لو كنت مكان [آدم] المسكين لصدقت كل هذا الهراء. فهو من الدقة بحيث لا يترك مجالاً للشك أبداً"¹؛ إذ تقدم مثل هذه التقنية معلومات مقنعة بسرعة البرق، ودقة العرض في التشويه حتى يُتأكد من صحتها من دون أدنى شك. وليس من سبيل إلى ذلك إلا بتكريس مرايا العنف، واختلاق العنف المضاد، لأنهما يشكلان المنهج الوحيد الذي تزداد معه قناعة الذات أنها بحاجة إلى الآخر، بوصفه المنقذ من الهلاك، والحامي الأساس لحصانة استتباب الأمن بالشرطي العالمي، وفي حال استعصاء ترويض الخصم ينبغي تدميره، كما جاء في قول ليتل بروز: "إن العدو إذا أردت أن تدمره إما أن تمحوه، أو ترجعه إلى بدائيته

¹المصدر نفسه، 254.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

الأولى، البدائية فيها متعة أن ترى البدائي يقتل أخاه على لقمة خبز، أو الاستيلاء على أرض لا تنجب إلا الرمال والرماد، أو يقاتله من أجل مصلحة ميتة¹. هي ذي القوة الناعمة التي باتت تسيطر على مصير الأمم المستضعفة، والهويات التليدة، سواء بفعل مظنة "نظرية المؤامرة"، أم بفعل "قابلية الاستعمار" في منظور مالك بن نبي، وهما النظريتان اللتان خلقتا شخصيات مهزومة — منذ نعومة أظافرها — في تكوينها، الذي جعل منها طيوراً خشية غير قابلة للتخليق، حتى أصبحت أجساماً يغلب عليها الرعونة، والطيش، وموجهة ضد كينونتها، وقيمها الذاتية بشكل محكم، ومدير لها، من دون إدراك ما يلفها من ضلال.

وبلا شك إن هناك تناظراً لهذا الفتك بين السبب والمسبب، بين الفعل ورد الفعل، لثقافة العنف، وكلاهما أصبح يؤدي بحسب مقولة هراقليس [العيش ميتاً والموت حياً]، عندما لا يتمكن نظام ما حل مشكلات يصادفها، فليس عليه إلا أن يموت، أو، وهذا ما يحصل، أن يخلق ميتاً².

وفي السرد الذي تطرحه الشخصيات، تبدو الصورة معنية بالزمان والمكان ومصير الإنسان العربي/الإسلامي، ورسمها بأدق التفاصيل، سواء من حيث الوقائع التاريخية، أم من حيث الرؤى المخطط لها بإحكام؛ لتجسيد

¹ المصدر نفسه، 439

² ينظر، جان بودريان، عنف العالم، ص 69، 87

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

فعل الهدم، والدمار، وإراقة الدماء بكل السبل المتاحة. وقد جعلت هذه الشخصيات دورها الأساس قائما على رعاية شخصية [آدم]، توجيها، وحماية، وتنفيذا لفعل الإحرام المدبر له، كما جاء على لسان إحدى الشخصيات (ستيفينسن) بوصفها عاملاً مساعداً — بحسب مفهوم البرنامج السردى لوظيفة [آدم]: "هنا ينتهي طريقنا المشترك يا [آدم]، مهمتنا هذا مداها الأقصى. حمايتك.. ووضعك تحت تصرف الجهات المعنية التي تواصل معك العمل"¹. وعلى الرغم من تنوع مهام الشخصيات الحريصة على رعاية [آدم]، فإنها تتفق على معنى موحد، بين ما هو مخبراتي، ولوجيستي، وسياسي، وعسكري، وثقافي، رغبة في صناعة ثقافة جديدة لـ [آرابيا] في مسمى شخصية [آدم]، وما يمكن أن تسبغه هذه الثقافة من معنى مشترك بين ثقافات الشعوب من رسم صورة لرماد الواقع؛ بفعل الدمار الذي تقوم به الهوية الوطنية باسم الدين.

ومن هنا يتبدى بوضوح صراع الحضارات، ويظل هذا الصراع قائماً بين الأنا والآخر لتأكيد المفارقة الغريبة، سواء بما تكون به الذات الوطنية في جوهر مبادئها، أم بما هي عليه في صورة [التابع]. بمفهوم سيفاك Gayatri, Spivak ؛ لتحقيق جوهر مبادئ الآخر، وتعميق الوعي المتعالي فيه، بمفهوم ديكارت René Descartes، ومن ثم فإن صورة [آدم] لا تطرح نفسها واعية بذاتها، ولا هي واعية بمبادئها، نتيجة الواقع

¹ حكاية العربي الأخير، ص 105

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

المهترئ الذي تربت فيه، وإنما تُفرض عليها المبادرات بتدبير محكم؛ لتنتهي في وجود الآخر بتقديم حلول لصراعات محتدمة، خدمة لنسق ثقافة الدمار، وهي الصورة المخطط لها في واقع تضلله مفاهيم جوفاء من مضامينها الجوهرية، كالديمقراطية، والعدالة، والحرية، والمساواة، والمنظمات الحقوقية، والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، والوكالات المساعدة، والمفوضيات، والرباطات الإنسانية مثل الرابطة الافتراضية في سرد الرواية [Lidrafic] التي رسمتها لمساعدة [آدم] مجازاً، ووصفها بالإنجاز العظيم في حق آرايبا، على حد قوله: " جيد أن توجد هذه الرابطة. سكان آرايبا لم يكن لهم حتى حظ في تجميعهم وحمايتهم مثل الهنود الحمر. يتأكلون في عزلة الرمل، ويأكل بعضهم بعضاً، والمنتصر يموت عطشا وجوعا في أرض امتصت من كل شيء، ولم تعد تنجب إلا الموت"¹، ولولا هذه الرابطة ما كان — مما تبقى — من سكان آرايبا أن يكون له وجود(!!)..

وإذا كانت مسألة [آدم] واردة من منظور نسق الضمير الجمعي الثقافي؛ لما وُضع فيه، وخُصص لوظيفته، فإن الأفق الأنطولوجي لأنماط فصيلة [آدم] تستدعي مسألة الواقع الذي دفع بهذه الشخصية إلى التعفر في مثل هذا الوضع الذي من شأنه أن يهدم كينونة الذات في مصيرها؛ لأن الضوابط التي يكون بها المرء منتميا لهويته تنفي الارتباط بالآخر — على هذا النحو — إلا في حدود ما تمليه الثقافة، والمصالح المتبادلة، ومن ثم فإن الذات

¹ حكاية العربي الأخير، 52،53.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

الواعية لا تملك قيمتها إلا من فصيلتها، وبتفاعلها مع مبادئها، ومقوماتها الحضارية، وضمن آفاق معيارية لا تسمح بالارتقاء في كنف الآخر المستبد، وهي وضعية لها من المسؤولية ما يمكن أن تُخضع المتمرد للمساءلة الأخلاقية، ضمن حدود أنظمة المعيار الضابط للانتماء الحضاري؛ لأن الذات لا تدرك ذاتها إلا في إطار شروط مقومات الضمير الجمعي الذي يمنحه الاعتراف بمعنى [القيمة]، وهو "ما يعني أن الـ "أنا" لا تقدم هذا الاعتراف من مواردها الخاصة. في الواقع يبدو أن الـ "أنا" تكون خاضعة للقاعدة في اللحظة التي تقدم بها مثل هذه المنحة، بحيث تصبح الـ "أنا" وسيلة لفاعلية ذاتية تباشرها القاعدة، لهذا يبدو أن القاعدة تستخدم الـ "أنا" على نحو ثابت بالدرجة نفسها التي تحاول بها الـ "أنا" أن تستخدم القاعدة"¹، وما عدا ذلك تصبح الذات طريدة سائغة، ولا تستطيع أن تنجو من وظيفة [التابع] المنصهر في ذات الآخر، والمتماثل مع وعيه الثقافي، والمرقن بالمطالب المشبوهة في حقه.

وضمن هذا السياق تكون الذات معترفا بها من الآخر ظاهريا، مقبولة منه طويّةً، وهي معادلة تحكمها المصلحة من طرف واحد، سبق أن حددها هيجل Friedrich Hegel في "تملك الذات من الآخر"، كما تملك الكولونيالية الجديدة المسمى في شخص [آدم] الذي يراد له أن

¹ جوديث بلتر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2014، ص70.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

يكون في مستنقع المكر المتلاعب به، وفي أيدي الظلامية: "أنت لم تعد ملكا لنفسك يا [آدم]، كل من في مكانك هو ليس ملكا لنفسه"¹. فما كان منه — ذات مرة — إلا أن حاول أن يكفر عن ذنبه بتبرئته مما يحدث، وإشعارنا بأنه كان ضحية كل الجهات حين وجد نفسه على حافة عالم آرابيا الذي مات كلياً، ولم يبق إلا علاماته القليلة، وتمزقاته، وحروبه، وعالم غربي في عز انهياره بسبب أزماته البنيوية، وإسلام فقد كل مبرراته الإنسانية منذ أن استلمه التنظيم؟ كيف يمكنني أن أكون وسط هذه الحواف. حينها رد عليه ستيفينتس: "ليس هذا هو المهم. في النهاية نحن نحتاجك ولا نريدك أن تسقط"².

وعبر المتواليات السردية نجد العوامل المساعدة وافرة لتمكين [آدم] من أداء مهمته على الوجه المطلوب، ضمن علاقات تحكمها مصلحة من كل الجهات المتعاملة معه، يمكن تحديد أهمها في هذه العلاقات، فهي إما:

- علاقة رغبة في الهدم (صورة السرد اللوجستي موزعة في كل مفاصل الأحداث).
- علاقة رغبة في المساعدة المضللة (رابطة **Lidrafic** للدفاع عن حقوق الإنسان، ص 52، ومواضع أخرى عديدة).

¹ حكاية العربي الأخير، ص 147

² ينظر، نفسه، ص 102

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

- علاقة المساعدة؛ للإيقاع به في مكائد (من شخصيات مخبراتية، موزع في كل مفاصل الأحداث).
- علاقة تيهان بمساعدة لوجيستية متخفية (أزاريا، اليد الخفية التي تحرك الآخر/ نسبة إلى إسرائيل، موزعة في كل مفاصل الأحداث).
- علاقة صراع بين العامل المساعد والعامل المعاكس (في شخصية الكوربو. إرهابي معروف خريج أمريكا ص 24).
- علاقة عديمة الجدوى (من القلعة التي لم تعد آمنة، كما في صحراء التتار ص 273، 343).
- علاقة التصفية (من الإرهاب، ص 306، 348، 347، 346، وفي مواضع عديدة).
- علاقة إشفاق (من الحضارة الآسيوية على [آدم]، رمز الحضارة العربية الإسلامية).
- علاقة مع سلالة الذئاب (في صورة الرماد الميت الحي، ص 383).
- علاقة فصامية بجذرها الحيواني (في وصف ذاته المنهارة: "فِي شَيْءٍ يشبه الذئب، يمكنني أن أكتفي باللا مكان"، ص 149).
- علاقة القفر (أنا نفسي لا أعرف أية وجهة أسلك، 362).
- علاقة الخوف من الموت (لولا تدخل وسائلنا في الوقت المناسب لانتهى الحديث عنك اليوم، ص 271).

أد.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

وليس في هذه العلاقات ما يعارض مسيرة [آدم] إلا علاقة الخوف، ما يعني أن معظم هذه العلاقات تفتقر إلى الصراع السردي بين العامل المساعد والعامل المعارض، في مقابل تعزيز الرغبة بين "العامل الذات والعامل الموضوع" في صورة التحفيز؛ أي تحفيز [آدم] على إنجاز المهمة التي أوكلت إليه، ولعل في انتفاء شروط العامل المعارض في العملية السردية ما يشير إلى افتقاد الذات أعز ما تملك من مواقف ومبادرات سديدة، بالإضافة إلى افتقادها مرجعية القيمة المعيارية، ومعناه في الوقت ذاته ارتهاؤها بالآخر الذي لم يجد من يضاده، ما جعل إعاقته أمراً مستحيلاً في ظل الخنوع التام للذات الآسنة، على حد قول [آدم]: "لا أعرف أية وجهة أسلك؟ أرض أمي وأبي وأجدادي لم تعد موجودة، وانقسمت إلى شمال وجنوب، والشمال إلى خمس دول، والجنوب إلى أربعة، وفي الخمسة والأربعة، قبائل ومجموعات غربية تتقاتل على التراب، والمعدن، ووجهة الرياح".¹ في إشارة إلى ضياع بوصلة الاتجاه الذي يسلكه من دون سند، أو رعاية آمنة.

لعل هذه الاهتزازات المتصدّعة، في مثل هذه العلاقات، أنها في الواقع سليلة السرديات الكبرى في الثقافة العربية، منذ أمد بعيد، ولكنها — على الرغم من ذلك — لم تكن بهذا المستوى من الوضاعة، التي ابتعدت عن فكرة التنوير؛ لتحقيق ما نادى به الإصلاحيون من الآمال، كنا نظن أنها أكيدة المنال، بدءاً من الوحدة إلى البناء والتشييد. وإذا كانت الذات الوطنية

¹ حكاية العربي الأخير، ص 362، 363.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

حاملة بتحقيق ذلك، وأنها دائما تسعى إلى أطوار التشكيل لتمكين الهوية من الثبات للمواجهة، والتحفيز على فعل الإنجاز، فإنها مع الجيل الجديد أصبحت مرتكزة بالفشل في إدارة المطلوب للوصول إلى المبتغى، ومصفدة بإدارة الآخر، "هذا الآخر الذي يقبع داخل الأنا، إنه الآخر الذي يستطيع المرء معرفته، فقط من المكان الذي تقف فيه الأنا. وهذه الأنا (الذات) كأنها متضمنة في النظرة المفترسة للآخر، وهي الفكرة التي تدمر الحدود بين الداخل والخارج، وبين المندرج داخل الحدود، والخارج عنها"¹. ومن وجوه ذلك الارتقان، المهان، شخصية [آدم] الذي فرط في وحدة الذات وصحوتها قبل التفريط في الذاكرة الجمعية، وإنكارها.

وإذا كان الوعي يحدده قطبان أساسيان هما وعي الذات ووعي الوجود، فإن [آدم] لم يدركهما، ولم يعقلهما، ولم يتحصن بهما؛ للوصول إلى الهدف المنشود، ومن المفترض أن الذات عندما تصل إلى هذا الحد من الارتقان بالآخر تسقط — حتماً — في التذلل والإذعان، على النحو الذي خططه الآخر لوظيفة التابع، من منظور أنه شخصية مهمة لا يمكن التفريط فيها، على نحو ما قاله الآخر في حقه الدَّعي: "حافظنا عليك؛ لأننا رأينا أنك تتعلم بسرعة، وأنتك شخصية كبيرة، ومهمة في مشروعا الإنساني الكبير... نحن اليوم من يصنع التاريخ الجديد... ما معنى اليوم ألفاظ رنانة كحقوق، عدالة، مواطن، حرية، حق، نبل، وفاء، سخاء، حقد... مجرد خردة. العالم

¹ أنطوني كينج، وآخرون، الثقافة العولمة والنظام العالمي، ترجمة، شهرت العالم، وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001، ص79

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

اليوم للأقوى يا عزيزي... من ليس معنا ليس عدونا فقط، يجب أن يحى. إنسانيون إلى أقصى الحدود، لكننا نحارب العواطف الفارغة، فهي مورطة، قوانيننا في قلعة أميروبا صارمة"¹. إن هذا يجعلنا واعين أن الآخر لا يقبل الموقف المعادي للقرار الملزم من القوى العظمى، التي تنبع أفكارها من حب التملك، وفرض التسلط؛ لأن أية إمكانية للتباين والرغبة في الاختلاف، لا ينبغي أن تكون إلا بإرادته، بوصفه النموذج الأمثل؛ لذا يشترط على الذات الوطنية، وعلى أفكار الهامش، أن تتماهى في مشروع النظام العالمي الجديد، في هذا العالم الذي يحكمه الأقوى، هو من يحدد صلاحية الشيء من عدمها، ما دورنا نحن؟ ستقول لي إن العالمي كان دائما هكذا، يحكمه دوما المنطق الإمبراطوري"².

وإذا صحت هذه القراءة لرسم المنظومة العالمية بمفهومها الكولونيالي الجديد بهذا الشكل، فإن **إرادة القوة** تمثل الحل الأمثل لها — كما في نظر نيتشه Friedrich Nietzsche — وأما الأقدر على أن تكون، فقط، مع العرق الآري، بحسب سياق الإيدولوجية النازية التي تقوم على أفضلية العقل الجرمانى، ومن قبل ما صرح به الفيلسوف رينان Ernest Renan من خلال ترسخ النزعة العنصرية التي تنادي بتفضيل الجنس الآري على الجنس السامي، بوصفه — في نظرهم — جيل بناء الفشل. والحال إننا قد نعطي تعلقة لمثل هذه المواقف، وعلى وجه التحديد في المدة

¹ حكاية العربي الأخير، ص 202، 203.

² المصدر نفسه، ص 345

أدفيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

الأخيرة من بداية الألفية الثالثة التي تخلينا فيها عن أي مشروع يمكن أن يحقق هويتنا، أو أهدافنا، أو رؤيتنا للوجود، وهو ما أثبتته الأنظمة الشعبوية، بحسب مفهوم [تيم هووين]، و [إدوارد شيلز]، بعد أن تحولت إلى أنظمة استبدادية، رعاء في تخطيطها، خرقاء في رؤيتها الاستراتيجية، بارعة في إفسادها المكاسب، بخاصة الدكتاتوريات العربية التي "نفذت ما كان عليها تنفيذه ويوم صدقت أن لها دولة، وفي أول هزة أعيدت إلى بدائيتها الأولى. نحن في عالم شديد الغرابة، عندما قام العرب بثورتهم كبقية الشعوب قتلوا أنفسهم أولا، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم، وبعدها خلقوا فراغا ظنوه هو الديمقراطية، ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم، مجموعات يقتلها العطش والصحاري والشعابين، كالعمران الذي شيد على الرمال، وفي ثانية واحدة انهار كل شيء"¹. وهذا يجعل الآخر على وعي تام بأن الذات لا تنتهي إلى قصد تبغيه، أو رؤية تراها، وأنها لا تقبل بما دون [العصا والجزرة]، العصا في صورة الإنذار، والوعيد، والبطش، والجبروت، والتخويف؛ والجزرة في صورة العطية الغثة؛ لمن هو محل الطاعة والانقياد. وليس غريبا أن تربط الجزرة بالأكلة المفضلة للأرانب؛ لتذللها وانصياعها حتى بات يضرب بها المثل في الجبن، وفي حوار [آدم] مع شخصية [مايجر] ما يوضح صورة هذه التبعية المدعنة: "انظر يا مايجر، أنتم عسكري، ولكم خياراتكم وحساباتكم. طبعا لا يمكنني إلا تقديرها. وجودكم في هذه القلعة له ما يبرره بكل تأكيد. ولكم مؤسسة تحميكم من كل التجاوزات، أنا ليس

¹المصدر نفسه، 343.

لدي هذا للأسف. مجرد إلكترون ضيع مساره، وعليه أن يبحث عن طريقه الأسلم، ويعود باتجاهه. لهذا لا تستغرب إذا قلت لك: لقد كنت سعيداً بالعمل معكم، لكن كل حلمي أن أخرج من هذا المكان الذي اعتبر فيه غيـست [Guest؛ أي ضيف]¹، وكونه ضيفا في قلـعته [آرايا] يعني انصياعه لأوامر الآخر، حتى وهو في موطنه، وامثاله لإكراهاته، وهي الصورة الأـحـط لمن يدير ما تدبره إدارة التوحش. لعبة المـُحَقّ الفـُتـاكـة.

بعد أن عزونا امثال [آدم] إلى الإذعان بفعل الاستسلام والهوان، عُنُوًّا في حق هويته؛ فإن اختياره هذا السبيل يجعلنا نؤكد أن شخصيته الصِّلَفة تـمـادـت في صورة الـارـتـهـان بـالـآخـر إلى حـدِّ التـيـه المـشـفـوع بالـترق والرعونـة، خاصـة بـعـد أن بات يُوظَّف باستـحـكـام كـالـآلـة في أثنـاء اسـتـخـدام سـبـل التـحـكـم فـيـها، نظـير ما يـقـدمـه الآخـر من تـهـيئة الأـجـواء وتوفـير الوسـائـل، وتعزـيز الإقـدام، وتمويـه المواقـف، ونفخ العزيمـة، والتضليل بالهمـة، حتـى أصـبـح حَبَلا مـفـتـولا في يد الآخـر، ولـعـبـة مُطـارـدة، يـحـركـه كـيـفـما شـاء، وأنـى شـاء، طالـما أـحـاطـت بـه هـذه المـواصـفـات الضـالـة، والمـخـاتـلـة بـكل وسـائـل الغـوايـة؛ إذ بـلـغ بـه الأـمـر إلى أقـصـى حـدود الخـطـيئة بالشـروع في مـحاوـلة ارتـكـاب أفـظـع الجـرائـم المـثـيرة لـحـنق هـويـته، وما قد يـصـيب الواقـع من أذى في حق الأبرياء، من خـلال ما دُبِّر له من تصمـيم بالمقاس؛ لأعـمال شـنيعة، وبـخـطـط مـحـكـمة التـنـفـيـذ، في ضـوء ما قُـدِّم له من مـتـزلة، رأى فـيـها أنه جـديـر بـها، وأن ما ناله

¹المصدر نفسه، ص 295.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

من حظوة خليقة بمستواه التكويني الذي تلقاه في مؤسسات الآخر، التي بعثت فيه صورة الخيلاء، بوصفه عالماً نووياً، مرتضياً بهذه الزلفى، وهو يعي في سريرته أنه يتناول على ذاته بما ليس فيه من كرامة، وعزة نفس.

وإن من الأهمية بمكان أن شخصية من هذا النوع لا يمكن إلا أن تكون طيعة في يد الآخر، وتخضع لإملاءاته، وأن ليس بإمكان أية حماية ذاتية أن تعدله عن مواقفه، أو تردّه إلى سواء السبيل، أو أن تحاول إقناعه بالتخلي عن مواقفه الهدامة. ولعل صورة [آدم] في ظل التوصيف الذي قدمته الرؤية السردية لـ "حكاية العربي الأخير" تجسد صورة الواقع العربي المعتل بما يتعرض له من مخاطر، هو طرف أساس فيها، وهي أيضا الصورة المظلمة لوجود الآخر، بوصفه المضلل لهذا الواقع الضيّ، المتوقع اندثاره.

وحتى يكون الوضع على هذه الحال، استثمر هذا الآخر شخصيات من هذا النوع — وما أكثرها على هرم الأنظمة الشعبوية، على وجه التحديد، وقد أفضى ذلك إلى تعزيز عطية [التابع] الغثة، رغبة في تمكين الحماية القادرة على الدفاع عن مكتسبات الآخر في المكان المناسب، وضمانا لاستقرار وجوده من خلال توظيف الذات المحلية كقوة صلبة، توضع في الواجهة؛ لأنها تمتاز بالشدة والقساوة، ومطبعة في الآن ذاته؛ لتنفيذ الأوامر حين يطلب منها، على نحو ما دار من حوار بين [آدم] وشخصية [سميث]، الموجّه الخفي لفعل المؤامرات لكل ما يقع في [آرايا]، حين وصف [آدم] على أنه الباحث النووي الفذ، وصاحب مشروع صنع قنبلة

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

جيب فتاكة في الزمان المحدد، والمكان المعين المحصور، فقال له: طلبتك لغرض واضح يا [آد]. إذا أردت أن تواصل جهودك هنا، فالمخير تحت تصرفك، فقد تم نقل كل ما نحتاج إليه في عملنا هنا المخيري؛ لتطوير جهود قبلة الجيب، ولك أن تبقى بطبيعة الحال في مكانك محميا¹.

إن اشتغال سرد "حكاية العربي الأخير" على شخصية [آدم] بهذا المستوى من مكونات التخلي عن واجب الضمير، يجعلنا نقر بأن قيمتها الإنسانية محكومة بالإعراض عن الدور الثقافي، والانكفاف عن القيم الحضارية، كما يمكن النظر إليها على أنها شخصية نموذجية لفساد المؤسسة في الواقع العربي، ومن ثم فهي تمثل الشامة المرجعية الواهية، والوصمة للقيم الأصيلة، كما يحيل هذا النوع من الشخصيات إلى كشف ما كان محجوبا لدى الكثير من المواقف، باتت مألوفة في عوالم محددة، ضمن نصوص الثقافة ومنتجات التاريخ (الشخصي والجماعي)، اعتقادا منا أن مثل هذه الشخصية تعيش الذاكرة بوصفها جزءاً من زمنية قابلة للتحديد والفصل والعزل، كما هي كل شخصيات التاريخ، أو شخصيات الواقع الاجتماعية الضالة، ولهذا السبب سيكون مطلوباً من القارئ في حالات التلقي الاستعانة

¹ حكاية العربي الأخير، ص 144.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

بكل المعارف الخاصة بهذه الكائنات التي تعيش في الذاكرة في شكل أحكام، أو مآسٍ، أو مواقف¹ شائنة، قد لا تستحق من الضمير الحي إلا الاستنكار.

إن الآخر المتمثل في الغرب، حين تجبر، أصبح يعيش "سيادة مشروع اللاعقل" على حد تعبير فوكو، على خلاف ما عاشته الذات المتمثلة في صورة الحضارة العربية الإسلامية حين تواضعت سلميا فكسبت الآخر، وهو فرق رحيب، يعكس صراعاً حضارياً قائماً على التباين بين ثقافتين لإيديولوجيتين مختلفتين، ومن شأن هذا التباين أن يدفعنا إلى التساؤل عن مبررات تفكيك "الذات العقلانية" في ظل توالي الأفكار الكولونيلية الأسرة، والمدمرة، باستلاب وعينا، وتفكيك علاقاتنا المترابطة إلى الحد الذي لا يمكن للعقل أن يقبله، بعد أن اكتمت عمق إرادتنا، وفطرت ضمائرنا، وفسخت مفاصل وحدتنا، ثقافيا وأنطولوجيا، وبعد أن أغفلنا استثمار العقل التواصل، بوصفه أحد عناصر مكونات التقارب بالحوار مع الآخر، الذي غلب عليه طابع العقل الأداة المبنى على بث فكرة التفنيت والشهوة التدميرية، من دون مراعاة القيم الإنسانية؛ الأمر الذي أوصله إلى الانتشاء في انتشار فكرة العقل المدمر، من خلال الرغبة في إعادة تشكيل واقع جديد، بعد هدمه إلى أجزاء، ويستحيل تماسكه بمرجعياته الثقافية، وأن ذلك لن يتحقق إلا بفعل الخراب الشامل للمكونات الحضارية المتماسكة، على النحو الذي نراه مع بداية الألفية الثالثة مع الدمار الممنهج، بدءاً من غزو العراق

¹ ينظر، قليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة، سعيد بنكراد، دار الحوار، ط1، 2013، ص14، مقدمة المترجم.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

إلى ما يقع اليوم في سوريا "والجبل على الجرار"، مع كل من تشامخ على الكولونيالية الجديدة التي تجاوز منظورها فعل عنف الإرهاب غريزة حب التملك بالسيطرة إلى غريزة حب التدمير بالحو امتثالاً لفرض السلطة بكل السبل، حتى لو استوجب الأمر الشروع في الإرهاب بالتفويض؛ لامتلاك إرادة ما تبقي من الخصم، أو كما قال ماكس فيبر Max Weber في أثناء تعرضه لتمكين إرادة السلطة، حينها يكون الحظ أوفر من خلال "فرض إرادتي رغم مقاومة الآخرين لها" أو بحسب تعبير كلاوزيفتس Clausewitz بأن "فعل العنف يهدف إلى إجبار الخصم على فعل ما أريد"¹.

تروي الرواية في سردها المستفيض صراع الكولونيالية الجديدة مع الحضارة العربية الإسلامية، بوصفها حضارة متهالكة ينبغي الاستيلاء على خيراتها، غير أن هذا الصراع لم يعد كما كان عليه الوضع مستساغاً في منهجيات الاستعمار التقليدي، من خلال استعمال العنف بالمواجهة المباشرة بين الذات والآخر، بل ذهب مع الكولونيالية الجديدة إلى أبعد مما يمكن أن يقبله الضمير الواعي بعد استغلال الضمير الواهي، وهو ما يتبدى واضحاً في سرد "حكاية العربي الأخير" في تفصيلات مفاصل العنف الدقيقة، باستبدال عنف الذات للذات بعنف الآخر للذات، أو الذات للآخر، وبين هذا وذاك يكون الخاسر هو تخطيط الذات الوطنية مادياً ومعنوياً، وهذا من شأنه أن

¹ حنا أرندت، في العنف، ترجمة، إبراهيم العريس، دار الساقى، ط1، 1992، ص 32.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

يبعد الخطر عن دول الكولونونية الجديدة، وتسويقه إلى الدول المستضعفة ذات التوجه العَقَدي التي يمكن وصفها بـ [كيد الغرب]، أو بحسب مقولة ماركس Karl Marx: [أفيون الشعوب].

لذا ينبغي — في نظر الكولونونية الجديدة — زعزعة سلطة الذات الوطنية، وتمزيق مفاصلها داخلياً من أجل فقد السلطة هيبتها، وخلق ارتجاجات أمنية، واضطرابات اجتماعية، حتى يصبح كيد الذات لذاثها مؤثراً ومغرياً للانتقام، حينئذ يتحول العنف من وسيلة لمحاربة السلطة بعدم الوفاء للمطالب الشرعية، إلى غاية لتشجيع هدم السلطة بمقوماتها الحضارية، ولن يكون ذلك محققاً إلا بالتدبير لفعل التفتيت الداخلي للذات من ذاتها، على الرغم مما يتوافر لديها من خيرات الغضارة والنضارة، والنعيم والرفاهية، على أراضيها، في جميع الأنظمة الشعبوية؛ لذا تستحق استغلالها بوسائل الإرهاب الفتاكة، كما في وصف شخصية [ليتل بروز]: "هناك أمم لا تملك قابلية الاستمرار في الزمن، فتقضي على نفسها بنفسها.. ماذا كان ينقص سكان آرابيا؟ الرخاء، والنفط، والذهب، واليورانيوم، وخيرات الأرض من حديد، وفوسفات، وذهب، وسواحل بعرض السماء، فراحوا يخوضون كل الحروب الخاسرة"¹. هي ذي قلعة [آرابيا] وفق توصيف الواقع الذي رصدته الرواية بعمق هشاشة بيت العنكبوت، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ

¹ حكاية العربي الأخير، ص 93، 92.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ ^طلَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ¹ وكما أن عائلة العنكبوت تأكل بعضها بعضا في أثناء قتل أنثى العنكبوت خيوطها، فإن ضعف قلعة [آرابيا] لا يقل هوئا من هذه الصورة من حيث تفكيك الترابط الاجتماعي، وتمزيق التعاضد الإنساني، وتشتيت التكاتف الأخوي، دفعا لواجب الحماية من الآخر، ولكن هيهات بين مطلب الحصانة والاستجابة للخنوع بالمستذل، وفي حوار [الميجر توني] مع [آدم] ما يفي برصد صورة الواقع العربي، وهما على متن طائرة للرحيل من مكان ما في عمق صحراء قلعة [آرابيا]، هربا من خطر الإرهاب: "انظر يا [آدم]، ماذا ترى تحت؟.. تلك قبائل متعدّد تتجه نحو نقطة الماء. تسمي نفسها باسم لوطا²؛ أي اتحاد قبائل آرابيا، ستتقاتل وتفني بعضها البعض، كلما وقعت المعارك. لولا حراسة وحدتنا لأفنت بعضها البعض... ها هم اليوم حتى التمر لا يجدونه، قطرة ماء يقطعون بسببها كل مخاطر الدنيا لكي يحصلوا على ما يشربونه"³.

ومتى ما هانت هيبة الهوية، ازداد التهتك، ومالت الذات عن جادة الصواب، وعمّ الخضوع والخنوع، ومتى ما كان ذلك كذلك خارت الذات، ووقعت في مخالب الآخر، يفعل بها ما يشاء، وكيفما شاء؛ لما لديها من قابلية الخضوع بفعل الوهن الذي أصابها، بحسب أفكار مالك بن نبي، لذلك يجد الآخر ضالته في التسلل إلى الذات الخثونة، وهو ما يبدو لنا جلليا

¹ العنكبوت 41.

²UTA، Union des Tribus Arabe

³ حكاية العربي الأخير، ص 452.

أ.د. فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

مع شخصية [آدم]؛ الضمير الجمعي للشخصية العربية الواهية، التي يمكن النظر إليها على أنها شخصية معتمة، منحت هيبته، ومقدرتها للآخر غير المتطابق مع معايير منجزات هوية الذات الجمعية؛ ونتيجة لذلك باتت تسهم في بَطْرِ الهوية بالامتثال للمُحُول، كما تسرده هذه الصورة، حين كان [آدم] يستمع إلى [سميث] الذي أدهشه فيما أعطاه من معلومات مفيدة لصنع القنبلة ذات المفعول المؤثر في الأمكنة المحدودة، والأزمنة المناسبة، حماية له، كما أقنع به من الآخر، فكان رده بعد التشجيع المتظاهر، والتعظيم من قدره الدعي:

- أقدرك كثيرا يا سميث، وأثق فيك بشكل أعمى، لهذا وضعتني أمام إشكال كبير، أشكرك بحب على وفائك.. وعلى أنك أخرجتني من عزلة العدمية، والتفوق داخل الذاكرة، صحيح أننا لا نعيد خلق العالم، لكننا نغيره، ويغيرنا وفق معايير، والعصر الذي نعيشه... كيف يمكن أن نشغل في ظل الكراهية؟ انظر إلى الشعار البائس عند مدخل القلعة: **العربي الجيد هو العربي الميت**¹. و[آدم] في مثل هذه الصورة يحاول أن يثبت وجوده بكل بجدارة، غير أن آية إمكانية لإثبات وجود الذات خارج نطاق السرديات الكبرى لها، يكون مآلها الفشل بالمساهمة في المكون الحضاري بالتماثل، وحينذاك تمنح الذات الآخر صفات **"النمطية السلبية"** التي تتماهى مع ما يطلبه الآخر من إملاءات إلزامية، حينذاك يتحول انصهار الذات مع

¹ المصدر نفسه، ص 146.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

ذاتها إلى انصهارها مع الآخر، وبهذا المعنى أيضا تتحول من إمكانية أداء الواجب الأخلاقي إلى الامتثال لواجب التابع للاستبداد بمفهوم "سيفاك Spivak"، ومن الالتزام بصون الهوية إلى النكث لها، والاستجابة لمطالب الآخر، والسهر على رعاية مصالحه.

ومن الطبيعي أن تنظر الكولونونية الجديدة إلى مصالحها مع من يخدمها، وأن تنظر إلى كل من يخالفها الرأي والمصلحة على أنه عدو ينبغي محاربته بكل ما يؤتى من حذر، ليس أقله من السعي إلى توظيف الذات المحلية بوصفها ذاتا طيبة، وغير مكلفة؛ لقلب الموازين، بما يتناسب مع ما تميل إليه "الرواية الحديثة في قلب العلاقة بين ما هو [عادي]، وما هو [متسام وفوق العادي]"¹، يُشكّل من أجل ممارسة الإرهاب، [وانتشاره] في الميدان من خلال نظام تجهيز شامل من تقديم دولة عظمى لحمايتها، ومن ثم توجيهه من أجل القيام بهجمات أهداف صغيرة وناعمة²، ولضمان ذلك لابد من حماية لوجيستية وأمنية شديدة الحساسية، ومتكاملة الدقة، حتى تؤدي الذات دورها على الوجه المتوخى باختلال بؤرة عالمها الخاص، أولا وأخيرا، وهو ما يشير إلى منطق الاستبعاد والإذلال، ناهيك عن الإسهام في تدمير الانتماء للمكان والمكانة، بعد أن انخرط [آدم] في عالم مظلم، يسعى إلى تدمير البشرية، قيدَ به إلى عالم الخراب حيث الهلاك، وغُررَ به حَيْفًا

¹ ينظر، جيسي ماتر، تطور الرواية الحديثة، ص126.

² ينظر، نعموم تشومسكي، ثقافة الإرهاب، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، العبيكان للنشر، ص58.

أ.د. فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولوجية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

بوضعه في واجهة الأحداث العالمية، بخاصة العلمية منها التي أظهرته على أنه مرشح لجائزة نوبل للفيزياء، نظير إنجازاته العظيمة في المجال النووي، في دلالة تتضمن الرفع من قدر من يخدم الآخر بإخلاص، إنه الباحث النووي الكبير [آدم] الذي يستحق بجدارة الفوز بهذه الجائزة بعد صنعه قنبلة الجيب. وحين فكر ملياً في إمكانية التراجع عن الفكرة، أرشدته العين الساهرة على حمايته إلى الخوض في المضمار، فما كان منه إلا أن ناجى نفسه: " لكن قنبلة بهذا الحجم الصغير لا أحد يستطيع أن يتخيل نتائجها الوخيمة"¹. غير أن الفكرة أخذت تشجيعاً وافرًا من قبل الآخر حتى من المنظمات الدولية الراعية لحقوق الإنسان التي ورد ذكرها في الرواية في أسماء بعينها بمسميات دالة على العَماية، والتواري خلف الإيقاع به، كما في اسم [أمايا] التي نصحتة بالإقدام في خوض المضمار على أن يأخذ الحيلة والحذر مما يقوم به، فرد عليها بأنه شارف على "الانتهاء من قنبلة الجيب التي لن تستعمل إلا في الحدود الضيقة، تفادياً لاستعمال القنابل الكبيرة... وضعنا عليها ضوابط وضغوطاً، وهذا كله يجعل منها سلاحاً ردعياً أكثر منه سلاحاً نووياً"².

وفي خضم ما مر بنا، هل هناك من استعباد أكثر مما وضع فيه [آدم] نفسه؛ وإذ ذاك حين تفقد الشخصية — من هذا النوع — استقلالية مواقفها السيادية، تُستعبد، وتفرض عليها سوءات التسلط من الآخر، الدَّعيّ للمثالية، وتبشير نموذج تصدير ثقافة العدل، والمساواة، والحرية، وغيرها من

¹ حكاية العربي الأخير، ص 164

² المصدر نفسه، ص 248

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

المصطلحات الجوفاء التي لم تجلب للذات غير التبعية بالولاء له، سواء أكان ذلك رعباً، أو طوعاً، خدمة لظاهرة جنون العظمة التي تلازم الآخر، "حيث تظهر الديمقراطية على أنها تتناسب تماماً مع مصالحه، فعليه أن يروج لها، أما عندما تتعارض الديمقراطية مع مصالح أخرى مهمة، فيجب التقليل من أهميتها أو تجاهلها بالكامل"¹. وحين تفقد الذات جوهر إرادتها بهذا الشكل تفقد معها جوهر الندية مع الآخر، أو إمكانية أن تكون نظيراً له، أو على الأقل أن تكون شبيهاً به؛ "لأن قدرة الذات هذه حين تنظر إلى نفسها كموضوع [الأنا] دون الكف عن كونها [أنا] هي التي تتيح لها الاضطلاع بوجودها الذاتي والموضوعي في الوقت نفسه، وأن تعالج مشكلتها الشخصية، موضوعياً، كما لو كانت مشكلة مرضية، وهذا ما يمنحها القدرة على البقاء في العالم."²

لقد كان تفرد شخصية [آدم] ماثلاً في الاستثناء الموجه بما لا يمكن التملص منه إلزاماً، حين وُضع — إكراهاً أو طوعاً — خدمة لمصالح الآخر، ولعل ما زاد من هذا التفرد عنوة هو غياب ما يطلق عليه [العامل المعارض] بحسب مفهوم النموذج العمالي في بنيته العميقة للسرد، وإذا كان الروائي قد تعمد هذا التغييب القسري للعامل المعارض، فذلك يعني مدى ميل الرواية الحديثة إلى استبعاده عمداً، نظراً إلى أنه لم يعد يشكل الدور الفاعل

¹ ينظر، تشومسكي، ثقافة الإرهاب، (التقديم)، ص 13.

² ينظر، إدغار موران، النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة، هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009، ص 96، 97.

في معضلة الحياة اليومية، بعد أن أزيح عن كافة الأدوار المتعلقة بمواجهة الآخر، حينذاك تغيب الحقيقة التي ارتقنت بصكوك الغفران، وشراء الذمم، ومواراة الرأي المضاد، ومن ثم كانت العوامل الفاعلة في الرواية تتمثل في:

- **العامل الذات:** وهو شخصية [آدم]، الذي يقوم بعمل الإذعان للحصول على مرغوبه. (استتراف الذات باتباع الوجهة، وجنون العظمة، نظير مكاسب هشة في صور عطية الجزيرة المصونة بالعصا الخفية)

- **العامل الموضوع:** المائل في تدمير النسق الذي يسعى إليه الآخر، وتُسْتَغَل فيه الذات للإسهام في الخراب، والتفكيك، وإعادة ترتيب الواقع عن طريق التناص الخارجي (الباراتاكسيس parataxis).

- **العامل المساعد:** وهو الذي يؤازر الذات في مهمتها/ وقد كان حضور المؤسسات الفاعلة لخدمة الكولونيلية الجديدة وافرًا، وتحت مسميات كثيرة. بما فيها المنظمات الإنسانية الدولية التي تتظاهر بتقديم العون للذات في تشجيعها لمشروع [الموضوع، وهو صنع قبلة الجيب الفتاكة].

ووثبًا على واجب الضمير الأخلاقي، هناك مسببات سيكولوجية، انضوت تحت طائلته، بوصفها نوعًا من التداعي الشيزوفريني في أفكار الشخصيات [من هذا النوع] التي ترى العالم من خلالها بصورة متشظية بانعدام الإرادة، ومثل هذه الرؤية المتشظية تصف، أفضل وصف، ثقافة متقطعة الأوصال/ التفكيك الذي جاء مع الفوضى والحرب الحديثة

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكولونالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

المدمرتين للعقل الحديث، وهذا ما ينعكس في الرواية الحديثة التي أنتجها الكتاب الذين ابتغوا من وراء هذا تزويد القارئ برهانٍ شكليٍّ مرعب على الكيفية التي انفرط بها عقد العالم¹.

عند هذا الوضع، يمكن اعتبار علاقة شخصية [آدم] مع الشخصيات الأخرى على أنها علاقة مشوبة بوظيفة واحدة، هي وظيفة الدمار، وكأنها جميعها جاءت لمؤازرة هذا المسعى الوظيفي، ولرعاية المهمة المطلوبة من [آدم] المخترئ على هويته، والمتجاسر على هذا الفعل الشنيع في غياب السند المعارض، أو المنبه، للحيلولة دون تحقيق الجرم، أو على الأقل إعاقته من هذه المهمة المعدّة لها بإحكام. وضمن هذا السياق العلائقي جاءت أدوار شخصيات "حكاية العربي الأخير" ضالعة بالتوحش لتحقيق القصد، ومتحالفة فيما بينها للمشاركة في هدف واحد هو الهلاك، ولا شيء غيره؛ وبتمثيلها القادر على تفعيل عناصر الأحداث بدقة متناهية؛ للقيام بمساعدة [آدم] على إنجاز فعل الإجرام في محيطه؛ لذلك فإن العلاقة بين هذه الشخصيات هي بالأساس منضوية تحت سياق مجاهدة ما سمي بالإرهاب مجازاً مرسلًا، وممارسة فعل التدمير والخراب حقيقةً مرّة، في غياب الفعل المعارض، إلا من شبح الإرهاب المغيب عمدًا، حتى أصبح الكل على الذات، والذات مع الكل، ومن ثم تحددت المهمة بناء على خاصية مجاهدة هوية الذات من الذات نفسها بفعل التدبير والقيادة السديدة، وعلى الرغم من ذلك لم يشفع لـ [آدم] أن كان مرضياً عنه من قبل الآخر الذي تربي

¹ ينظر، جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ص 119، 121.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

في حصنه، وتلقى ثقافته، ونال منه هويته بعد حصوله على الجنسية الأمريكية، وهو ما يبيّن هذا الحوار مع الماريشال: "لا أدري يا ماريشال لماذا لم يدخل في دماغكم أني أمريكي"¹، ويشدّد الموقف، ويحتدّ السرد المكثف في آخر الرواية؛ ليصل الأمر بين الشخصية الفاعلة في العملية السردية؛ للتشاور فيما ينبغي فعله، بعد محاولة الإرهاب اقتحام القلعة التي تضم الجميع بمن فيهم [آدم]، حينذاك تُبدي إحدى الشخصيات الفاعلة بالبوح للشخصية اللوجيستية، الرئيسة [ليتل بروز] بوصفه القائم على "لعبة المحقّقة" في قولها:

- نحن في عملية ترحيل والخطأ غير مقبول يا سيدي، يحتاج الأمر إلى شيء آخر أكثر ذكاء. لماذا لا نسرب المعلومة لمجموعة شادو² المكلف باختطاف العلماء النوويين العرب، لا أحد يحاسبهم، ولا يهم إذا اعترف القاتل بعد سبعين سنة، يكون الزمن قد تغير.
- المهم أن يتم كل شيء خارج القلعة، زمن أسود يمشي بشكل عكسي، عربي يعلمنا ما يجب فعله وما لا يجب فعله؟ سأنتحر قبل أن أرى عربيا يحميني، أو يأمرني"³.

¹ حكاية العربي الأخير، ص 375.

² Shadow تعني الظل — كما ورد ذكرها في الرواية — وهي فرقة تم تدريبها بعناية دقيقة؛ للاغتيالات وتصفية العلماء، بدأت بتصفية أبرز العقول العاملة في الهندسة الكيماوية والفيزياء والاختصاصات والبحوث المتقدمة، ينظر الرواية، ص 144، و 347.

³ المصدر نفسه، 438.

أ.د. فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

وَفَقَّ ذلك، هل بات [آدم] في سرد "حكاية العربي الأخير" إحالة إلى أنطولوجيا واقع قلعة [آرابيا] بهذه المهانة والابتذال؟ وهل بات يمثل ضميرها الجمعي فعلا؟ وهل تجرد ما تبقى من سلالة فصيلة [آدم] من قيمها إلى الحد الذي وصفته الرواية؟ وفوق ذلك، هل يمكن أن نصوغ خيانة [آدم] على نحو كلي للشخصية العربية، حاليا، بهذا الحد من الوضاعة؟ وإذا كان ذلك كذلك، مع من تتماثل شخصية [آدم]؟ هل مع العربي الكلي (العهد) أو مع العربي، المتفرد، (الصفقة)؟

لعل المتلقي يدرك أن شخصية [آدم] تتطابق مع منظومة المؤسسة المتحكم فيها بجهاز التحكم عن بعد، تلك التي تعمل تحت المراقبة بالأشعة تحت الحمراء، كما في المؤسسات النافذة لقلعة [آرابيا] ذات الطابع القيادي المستبد بالفكر السياسي، والمحمي في صوري: [الكل للواحد، والواحد للكل]¹، وليس الكل هنا إلا الآخر في صورة الكولونيلية الجديدة، والواحد في صورة المتفرد بالاستبداد، والخنوع.

إن في كينونة أنطولوجيا مؤسسات [آرابيا] تبدو شخصية [آدم] الواحد المتعدد، الأحقّ به الآخر على حساب ذاته في ضميرها الجمعي، وهي الصورة التي رسمها السرد لـ [آدم] المَعْدُّ سلفا بالمقاس لصالح الآخر، المائل

¹ المصدر نفسه، ص 310، و 449.

أد.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

في سرد شخصية "العربي الجيد الوحيد هو العربي الميت"¹، أما خارج هذه الكينونة بمنظور الذات لضميرها المرجعي، فإن "العربي النسيب، الجموع، هو العربي الحي"؛ وما بين الموت والحياة، يتصارع رهان التضاد في المبادئ، ويحتد الخلاف المتلبس، بين الذات وذاتها، وتوضيح الملازمة نفسها يشتد التضاد مع الآخر بشكل جوهري، نظير الخلافات الثقافية المفتعلة، شكلاً ومضموناً، وما بين استغلال العربي الوحيد الميت/الواهن، واستثمار العربي النسيب، الجموع/المخلص، يكمن الصراع بين تجزئة الذات — في ذاتها — قبل الصراع بين الذات والآخر؛ لأن أية مطالبة لمواجهة الآخر، يجب على الذات أن تتصالح مع ذاتها؛ لكي تتحمل مسؤولياتها الأنطولوجية والحضارية، وما لم يتحقق ذلك لن يكون للذات أي دور حضاري، وهي الحالة التي تعيشها الهويات القومية في كل أنحاء العالم في مواجهة عنف الآخر بالاقتحام ثقافياً، والمتسلط بعطية "الجزرة"؛ تبعياً، وهو الشاغل نفسه الذي "واجهته النظريات ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثية، في إعادة تعريف مفهوم المسؤولية؛ إذ هي ترى أن تحمل المسؤولية عن أفعالنا يعني الإقرار بهذه الحدود التي تقيد فهم الذات، وهي حدود لا تمثل مأزقاً للذات وحدها، بل للجماعة الإنسانية جمعاء، فهي إذن دالة على إنسانيتها. تترسب عمتنا في خضم العلاقة مع الآخرين، وتركنا مكشوفين أمام تأثيرهم وعنفهم الأخلاقي

¹ المصدر نفسه، ص 48، 107، 146، 160، 240، 271، 302، 448، وفي مواضع عديدة من الرواية.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكونولونية الجديدة في
" حكاية العربي الأخير "

بالرغم من أن جهودهم معنا في مشهد المخاطبة هو ما يمنح الذات الاعتراف، وبالتالي الوعي بذاتها.¹

وبين منطق هوية الذات في الحرص على تعزيز الوجود الأنطولوجي، ومنطق هوية الآخر في الحرص على الاستغلال بمفهومه الكولونيلي، ضاعت حقيقة الاعتراف المتبادل، انطلاقاً من الخلافات الثقافية التي يراد لها، من الآخر، أن تكون متباينة قسراً. وتبدو عملية سرد الرواية دقيقة الوصف بالشمولية — في اللا مقول في النص — رغبة في توضيح سبيل الوضع العربي بمحملاته الدلالية المرتبطة بواقع منظومة مطالب الكولونيلية الجديدة، التي باتت تحمل مشروعا ثقافيا تنضوي في مضامينه كل المشاريع ذات المصالح النفعية. ومن ثم فإن ما حصل عليه الآخر في الذات من مصالح نفيسة، لم تحصل عليه الذات من الآخر — في شيء — غير المصالح الغثة، وتوالي الملفوظات التسويقية، والوعود المخاتلة.

وإذا كانت رحلة حضور الآخر في الذات ماثلة في الحالة التفكيكية، بوصفها خصيصة، تُسوّق إلى الهويات القومية؛ فإن رحلة حضور الذات في الآخر مغيبة قسراً، إلا ما ظهر منها عبر الحاويات القياسية، وهي الحالة التي باتت الذات تعيشها باستمرار، وتتمدد بالتنوع، سواء عبر التخويف بسلطة العصا، أو بالترغيب بعطية الجزرة، وفي ذلك ما يشير إلى

¹ جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، مقدمة المترجم، ص 11.

أ.د.فيدوح عبد القادر عنوان المقال: النسق الثقافي للكلونيالية الجديدة في " حكاية العربي الأخير "

المفارقة المتضادة بين المشروعين، مشروع تأكيد الإنجاز في مقابل مشروع محاولة فهم ما يجري قبل التخطيط الاستراتيجي.

ومما لا شك فيه أن أي باحث لقراءة "حكاية العربي الأخير" لن يجد أفضل من الفرضيات التي عرضها علينا السرد الروائي بطرائقه الفنية المائزة، ولن يلقى أدق وصف للخنوع الذي وُصمت به شخصية [آدم] في رمزيته الدالة على مهانة الشخص المائلة عن جادة الصواب في هويتنا الثقافية، وواقعا العربي المربوء.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

المصدر

1. واسيني الأعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر 2015.

المراجع

2. إدغار موران، النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية، ترجمة، هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
3. إدوارد سعيد، العالم والنص والناقد، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 2000م.
4. أنطوني كينج، وآخرون، الثقافة العولمة والنظام العالمي، ترجمة، شهرت العالم، وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001.

5. بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة نبيل عجان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط1، 2015.
6. جان بودريار، وإدغار موران، عنف العالم، ترجمة عزيز توما، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2005.
7. جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2014.
8. جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ترجمة، لطفية الدليمي، دار المدى، 2106.
9. حنا أرندت، في العنف، ترجمة، إبراهيم العريس، دار الساقى، ط1، 1992.
10. صامويل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، مكتب سطور للنشر، ط2، 1999.
11. قليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة، سعيد بنكراد، دار الحوار، ط1، 2013.
12. نعموم تشومسكي، ثقافة الإرهاب، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، العبيكان للنشر.

13. Jean Baudrillard, J. The Spirit of
Terrorism and Requiem for the Twin Towers.
Trans. C. Turner (London: Verso. 2002)

المواقع الإلكترونية

14. بدر الدين مصطفى أحمد، عن الإرهاب والحرب العالمية

الرابعة: قراءة في كتاب روح الإرهاب لجان بودريار، الرابط،

<http://www.mominoun.com>